محاضرة 02:

السرقات الأدبية

ارتبط فعل سرق في المعاجم العربية بدلالات سلبية مستهجنة فالسّرقة والسَّرِق بمعنى واحد، وكلاهما اسم مشتق من الفعل سرق الشيء يسرقه سرقا. والسارق عند العرب من جاء مستترا إلى حرز – موضع حصين – فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب. وإن مُنع مما في يديه فهو غاصب. وانتقلت الدلالات نفسها إلى حقل النقد الأدبي مع تغييرات طفيفة لم تبتعد فيه عن جوهر فعل سرق.

وتعدّ قضية السرقات الأدبية من أقدم قضايا النقد الأدبي. وهي مسألة طبيعية قديمة في تاريخ الأدب العربي، وفي الشعر منه بوجه خاص. وُجِدت بين شعراء الجاهلية وفطن إليها النقاد والشعراء جميعا لما لحظوا مظاهرها بين امرئ القيس وطرفه بن العبد، وبين الأعشى والنابغة الذبياني. وكان حسان يعتزّ بكلامه وينفي عن معانيه الأخذ والإغارة ويقول:

لا أسْرِقُ الشُّعَراء ما نطَقُوا بل لايُوَافِقُ شِعْرُهُمْ شِعري

ولا يقف الأخذ عند الشعر فيما يتصل بسرقة الفكرة، أو سرقة الأسلوب وإن كان الشعر هو الفن الأدبي الذي يظهر فيه الإحتذاء. ولكن علماء الأدب ونقاده ولا سيما العرب منهم قد عنوا عناية فائقة بهذا اللون من ألوان النقد في الشعر، مع اعترافهم أنه يكون في المنثور كما يكون في المنظوم. والسبب أن النقد الأدبي جُلّه كان مُتّجها إلى الشعر ودراسته ونقده، وكان الشعر هو اللون الأدبي الذي غلب على العرب في جاهليتهم وإسلامهم.

وقد تناول موضوع السرقات الشعرية جماعة من رجال النقد والبلاغة منذ القرن الثالث **فأحمد بن أبي طاهر، وأحمد بن عمار** أخرجا طرفا من سرقات أبي تمام. وكذلك **عبد الله بن المعتز** وجاء **بِشْر بن يحي** فألّف سرقات البحتري من أبي تمام.

وظهرت مصطلحات للسرقات الشعرية، وذكروا منها في بادئ الأمر ثلاثة وهي: النسخ والمسخ والسلخ.

01ـ النسخ: هو أخذ المعنى بلفظه.

02 ـ المسخ: أخذ المعنى والتقصير عنه، أو أخذ المعنى وتشويهه بحيث يجيء أقبح من السابق.

03 ـ السلخ: أخذ بعض المعنى، أو عرض المعنى عرضا جديدا أو تحويره.

وأخذ النقاد يتحرّون أصالة الشاعر، ومدى ابتكاره في فنه، وفي أسلوبه ومعانيه، وأخذوا يتدبرون أمر هذه السرقات فقسّمُوها تقسيما يقوم على دعامتي اللفظ والمعنى، ورأوا أن السرقات على نوعين: الأول: سرقات أسلوبية أو لفظية.

الثاني: سرقات معنوية تخصُّ المعنى.

وإذا كان **الجاحظ** لم يطل البقاء عند قضية السرقات ويفهم ذلك من مقولته الشهيرة " المعاني مطروحة في الطريق " التي مفادها أن المعاني حظ مشترك بين الناس جميعا. وأنّ الفضل يعود لمن يحسن التعبير عنها، فإن غيره من النقاد قد أخذ على عاتقه التفتيش والتنقيب عن كل ما يتعلق بهذه القضية. فقد عقد **الآمدي** في موازنته بابا عن سرقات البحتري وأبي تمام وأخرج كثيرا مما عُدَّ سرقة عن كونه سرقة، بل يُحْسَبُ للشاعر فيه فضل الإجادة وهي ليست من السرقة في شيء وذلك: إذا أخذ الشاعر معنى غيره وألطف فيه وأحسن اللفظ وزاده وضوحا وبيانا، أو أخذ معنى وعكسه فبدا وكأنه معنى جديدًا. وهو اتجاه سلكه بعض النقاد عن السرقات من حيث هي ظاهرة طبيعية، انطلاقا من من موقف راسخ بأن المعاني كالهواء والماء إنما هي مشاعة مشتركة بين الناس فلا ضَيْرَ أن يأخذ الخلف من ميراث السلف.

أمّا **القاضي الجرجاني** فرأى بأن السرقة داء قديم بين الشعراء. وأنك إذا أنصفت علمت أن أهل عصرنا والعصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد من المذمّة لأن المتقدمين سبقوا إلى أهم المعاني، ولم يتركوا للمتأخرين إلا أهونها.

ويرى **أبو هلال العسكري** صاحب كتاب الصناعتين أن المعاني حقّ مشترك بين الناس جميعا لا غِنى لأحد فيها عمّن سبقه، لكن على الآخذ أن يكسوا المعنى ألفاظا من عنده ويكسوه حلية جديدة ليكون أحق له.

وفرقّ **ابن رشيق** بين المعنى المشترك الذي لا يجوز ادِّعاء السرقة فيه وبين الخاص الذي حازه المبتدئ فملكه كما فصّل في أنواع السرقات فإلى جانب النسخ والسلخ والمسخ توقف ابن رشيق عند أنواع أخرى مع الشرح والتّمثيل منها:

أ ـ الإغارة: وهي أن يضع الشاعر بيتًا، ويخترع معنًا مليحا فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا فيروى له دون قائله. كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه يُنشد:

ترى الناس ما سِرنا يسيرون خَلفَنا وإن نحن أَوْمَأْنَا إلى النّاس وقَّفُوا

فقال متى كان المُلْكُ في بني عذرة. إنما هو في مضر وأنا شاعرها فغلب الفرزدق على البيت، ولم يتركه جميل ولا أسقطه من شعره.

ب ـ الغَصْبُ: مثل صنع الفرزدق بالشمردل اليربوعي وقد أنشد في محفل:

فما بين من لم يُعط سمعًا وطاعةً وبين تميمٍ غيرُ حزٍّ الحَلَاقِمِ

فقال الفرزدق: والله لتدعنه أو لتدعن عرضك. فقال: خذه لا بارك الله لك فيه (أي الأخذ بالقوة والغصب).

ج ـ المرادفة: وهي أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهِبُها له كما قال جرير لذي الرّمَّة: أنشدني ماقلت لهشام المرئي فأنشده قصيدته:

نَبَتْ عيناكَ عن طلل بِحَزْوَى مَحَتْهُ الرّيحُ وامتَنَحَ القِطارَا

فقال ألا أعينك؟ قال: بلى، بأبي وأمي. قال: قل له:

يعدُّ النَّاسِبُون إلى تميـم بيوتَ المَجْدِ أربعةً كبـــــارَا

يعدُّون الربابَ وآل سعْدٍ وعمرًا ثم حنظلَة الخيـــــارَ

ويهلك بينها المرئي لغوًا كمَا أَلْغيْتَ في الدِيَّة الحوارَا

د ـ الاختلاس: هو أن يختلس الشاعر عن الآخر فكرة، ويستخدمها في غَرَضٍ آخر كقول أبي نوَّاس:

مَلِكٌ تَصَوّرَ في القلوب مثالُه فكأنّه لم يَخْلُ مِنْهُ مكانُ

اختلسه من قول كثير:

أُريدُ لأنسى ذِكْرَهَا فكأنّما تَمثُلُ لي ليلى بكلّ سبيـــــلِ